28 - السيدة معاذة الخزرجية

العفيفة مولاة زعيم المنافقين

اسمها معاذة، والدها عبد الله بن جُبَير، أنصارية خزرجية، كانت معاذة أَمَةً لعبد الله بن أُبي بن سلول زعيم المنافقين.

ولما أسلمت تغلغل الإيمان إلى جميع جوارحها، وهذا ما دفعها إلى تحديد مسيرة حياتها على أساس مبادئ الإسلام، وهُداه القويم، ولما كان الإسلام يدعو إلى محافظة المرأة على شرفها وطهرها وصون عفتها، فقد جعلت معاذة ذلك شعارها.

ولكن كان لمولاها رأس المنافقين رأيٌ آخر مخالف لرأيها، إنه لا يعجبه أن تتمسَّك بدينها، وتحافظ على شرفها وعفَّتها، ولا يسرُّه أن تعيش طاهرة كالنور، نقية كالثلج، بل يريد أن يلوِّث سمعتها، ويلطِّخ شرفها، ويرمي بجسدها في مستنقعٍ مترعٍ بالأوحال والأرجاس.

لقد أعطى الإسلام للشرف أولوية في حياة المرأة، فإذا صانته عاشت عزيزة مكرَّمة، وإذا أهدرته لم يبقَ لحياتها قيمة ولا معنى، وما أرخصها، وما أذلَّها لو سلكت هذا السبيل! لقد منحها الله ﷻ جمالاً بارزاً، ولكنها صانته عن مطامع الطامعين، وعبث العابثين.

ولكن مولاها الفاجر يود لو يستغلُّ جسدها الطاهر في البِغاء، ليحصل على المال والثراء، ولا يهمه أن يسبِّب لغيره الشقاء، إنه يريد أن يستغلَّ جسدها الطاهر الجميل أبشع استغلال، ويلقي بها في مهاوي الرذيلة، وأودية الفساد ليأتي بالمال من أقذر طريق.

ومن لم يكن له وازعٌ من دين، ورادعٌ من ضمير، لم يأبه للمال من أي

مورد حصل، ولا كيف إلى يده وصل؟ وكيف يهتم بهذه الأشياء وقد خلع برقع الخجل والحياء؟ وإذا كان ابن أُبي قد تخلَّى عن الإيمان، ولبس ثوب النفاق والهوان، فكيف يصون كرامة الإنسان؟.

محنة إجبارها على البغاء

لقد أوضح لمعاذة أنه يرغب في جعلها بغيّاً، وأن عليها أن تمكِّن من نفسها كل من يدفع له المال، وما الزنا - في رأيه - إلا عمل من الأعمال، غير أنه يدر الكثير الكثير، وهو بحاجة إلى المال الوفير، ولما كانت عبدة من العبيد، فعليها أن تنفِّذ كل ما يريد.

ولكن المؤمنة الطاهرة أبت أن تطيعه، وكيف تطيعه في أمرٍ حرام، مخالف لدين الإسلام؟ ذلك الدين الذي امتنَّ الله به عليها، وأصبح في الحياة أغلى ما لديها، ها هو ذا القرآن الكريم يقول لها: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ۖ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: 32].

ويقول أيضاً: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور: 33].

أتطيع مولاها، أم تطيع خالقها؟ ورسولها الذي قال: «**لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ**»، وفي رواية: عَنْ نَافِعٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلا سَمْعَ وَلا طَاعَةَ**»[1].

وروى الإمام أحمد عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ زُبَيْدٍ، عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ، عَنْ

(1) رواه: أبو داود/ كتاب: الجهاد/ باب: في الطاعة/ برقم: (2256).

أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ، عَنْ عَلِيٍّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**»[1].

إن إيمانها الراسخ المتين يأمرها بطاعة الله والرسول، لأن دعوة الله والرسول فيها حياة لمن يستجيب إليها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: 24].

أما دعوة سيدها الفاسق الفاجر فهي دعوة إلى الهلاك والخسران والتباب، فكيف ترضاها، أو تصغي إليها وتلبِّيها؟! إنها امرأة شريفة فاضلة، بايعت رسول الله ﷺ مع أخواتها المسلمات على ألَّا يسرقن ولا يزنين ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينه في معروف.

وهذا الباغي الأثيم يدعوها إلى نقض عهدها وبيعتها لرسول الله ﷺ، ويحضُّها على معصية خالقها، ولكن هيهات! هيهات لما يدعوها إليه! إن إيمان معاذة ﷺ لعميق الجذور، وليس لوغدٍ سافلٍ كابن أُبي إلى اقتلاعه سبيل! لقد سمعت معاذة رسول الله ﷺ يقول للنساء المبايعات حين أكثرن عليه: «**فِيمَ اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ**».

إنه أمرٌ بالصبر، فَلْتَصْبِرْ على هذا الباغي الأثيم، ولْتُجَاهِدْه قدر استطاعتها، وحسب ما تحتمل وتطيق، فإن الله لن يخذلها ولن يتخلَّى عنها، بل سيكون لها خير ظهير.

وأمعن ابن أُبي في غيه، وتمادى في ضلاله، وكرَّر محاولاته الدنيئة، فقالت له: إن الإسلام الذي آمنت به واتَّخذته معتقداً يأبى لي ما تطلبه، وينهاني عن طاعتك فيما يغضب ربي.

وجن جنون ابن أُبي وثارت ثائرته، فأخذ يشتمها ويضربها، ويلقي

---

(1) رواه: أحمد/ كتاب: ومن مسند العشرة المبشرين بالجنة/ باب: مسند علي بن أبي طالب/ برقم: (1041).

على مسامعها أحقر ألفاظ البذاءة والسباب، وراح يقول لها: «أنت ملك لي، وما دمتِ كذلك، فلي الحق أن أفعل بك ما أشاء»، ونسي ذلك الأحمق أن الملك لله الواحد القهار، وأن الخلق كلهم عيال الله، ونسي أن أحب عيال الله إلى الله أنفعهم لعياله.

كشف كربتها بعد صبرها

وصبرت المسكينة على ضربه وأذاه، واحتملت شتائمه وسفالته، وراحت تضرع إلى الله أن يصونها من الزلل، ويحميها من الخطيئة، ويرحم ضعفها، ويمدها بقوة من عنده، إنه ذو القوة المتين.

واستمرت معاذة صابرة على أذاه، دون أن تذعن لرغبته وهواه، حتى أذن الله تعالى بكشف غمها، وإزالة كربها، فقيَّض لها رجلاً من المسلمين كان قد سمع بمعاناتها، والظلم التي تتعرض له، فأتى إلى مولاها ابن أُبي وساومه عليها، واشتراها منه، ثم أعتقها لوجه الله تعالى، وأصبحت لا سلطان عليها لغير الله.

وبادر رجلٌ من بني عمرو بن عوف يقال له «سهلٌ بن قرطة» إلى خطبتها فتزوجته، وأثمر زواجهما عن ذكرٍ وأنثى هما عبد الله وأم سعيد وكان كلاهما من أفاضل مسلمي الأنصار.

وذاقت معاذة مع زوجها سهل طعم السعادة، ولكن جاءه الأجل على حين غِرَّةٍ فلبَّى نداء ربه، ولما حلَّت خطبها عامر بن عدي فتزوجته، ورزقهما الله بنين وبنات ربَّتهم معاذة على مبادئ الإسلام، وحب الله وحب رسوله ﷺ، لقد عفَّت عن الحرام فأغناها الله من فضله، وزوَّجها وفق شرعه وسنَّة نبيه، ومنحها ذرية طيبة ونسلاً طاهراً.

قال تعالى في مطلع سورة «المؤمنون»: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ

أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾

[المؤمنون: 1 – 7].

لقد حافظت على عهدها مع الله، فحفظها من العبث والفجور، وصانها من جاحدٍ كفورٍ، وعوَّضها عن عذابها بالسعادة والسرور.

رحم الله معاذة الطاهرة النقيَّة، وأنزلها دار النعيم.

obeikandl.com